Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحيوان أليق وأزكى لذكرناه في هذا الموضع». (١-٢٢٥).

ج - «كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطّعات الأعراب ونوادر الأشعار (...) فأحببت أن يكون حظّ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء الله» (٣-٣٠٢).

ومقابلة هذه المعطيات بعضها إلى بعض تستوقف الباحث قليلا قبل الاستنتاج، ولا شكّ أنّ حيرة المحقّقين تعزى إلى أنهم يحاولون أن يفصلوا فصلا زمنيّا واضحا بين فترات تأليف الجاحظ لكتبه منطلقين في ذلك من فرضيّة «ما قبليّة» بموجبها لا يقبلون ازدواج مصنّفين في فترة زمنيّة مّا : كليّا أو جزئيّا، ونحن نميل إلى القول بأنّ الجاحظ قد بدأ في تأليف الحيوان مبكّرا ثم إنّه شرع في تأليف «البيان والتبيين» ولمّا يتمّ الكتاب الأوّل، فيكون الكتابان قد اشتركا في فترة زمنيّة هي تلك الفترة التي حلّ بالجاحظ فيها داء الفالج. ولعلّ النّصّ الوارد في البيان(١-٢٢٥)يدلّ على أنّ الجاحظ يتحدّث عمّا يعتزم ذكره في كتاب الحيوان أكثر ممّا يدلّ على أنّه ذكره بعد.

فإذا سلّمنا بأنّ «البيان والتّبيين» هو من آخر ما ألّف الجاحظ أدركنا ما له من قيمة نوعيّة يتميّز بها عن سائر مؤلّفاته، فهو حصاد عمر طويل انقضى في البحث والتّصنيف، وهو ثمرة تمثّل ثقافيّ طويل المدى وتجريد فكريّ بعيد الأغوار، أمّا موضوع الكتاب فهو - كما تمليه مبدئيّا عبارة «البيان والتّبيين» - بحث في خصائص التّعبير البيّن، أي في صناعة